الباب الثالث

في ظلال المواعظ والأخلاق والوداع

كنتِ أمي بعد أمي!!

عن أنس بن مالك قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم عليّ رضي الله عنهما ، دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال : « رحمك الله يا أمي ، كنت أمي بعد أمي ، تجوعين وتُشبعيني ، وتعرين وتكسيني ، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني ، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة » ، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده ، ثم خلع قميصه فألبسها إياه ، وكفَّنها ببرد فوقه ، ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد ، وأبا أيوب الأنصاري ، وعمر بن الخطاب ، وغلاماً أسود يحفرون ، فحفروا قبرها ، فلما بلغوا اللَّحد ، حفره رسول الله بيده ، وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه فقال : « الله الذي يحيي ويميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقِّنها حجتها ، ووسِّع عليها مُدخلها بحق نبيِّك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنك أرحم الراحمين » .

وكبَّر عليها أربعاً وأدخلوها اللَّحد هو والعباس وأبو بكر الصدِّيق رضي الله عنهم[1] .

* * *

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي : ٩/ ٢٥٦ .

أجل!

هذا هو الوفاء من سيِّد الوفاء ﷺ .

إنها فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ، كانت تحنو علىٰ رسول الله ، فتطعمه ، وتكسوه ، وتعتني به ، حتىٰ أنها كانت تقوم بدور أمه التي ماتت .

فلما ماتت ـ وكان الرسول في أوج عزته ـ لم ينسها رسول الله ، إنما حزن عليها ودعا لها ، وحضر غسلها وتكفينها ، وألبسها قميصه وبردته ، ثم نزل قبرها وأخرج ما فيه من التراب بيديه ، ثم اضطجع فيه ودعا الله أن يغفر لها .

فهنيئاً لك يا أم عليّ هذه المنزلة والمرتبة العليَّة ، ونسأل الله أن يجمعنا بكم يوم العرض عليه ، مع الذاكرين والذاكرات ، بجاه الأنبياء وجاه النبي الخاتم ﷺ .

* * *

يا رحمة للعالمين يارسول الله!!

عن بريدة قال : كنّا مع رسول الله ﷺ ، قريباً من ألف راكبٍ ، فنزل بنا وصلّىٰ بنا ركعتين ، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام إليه عمر ، ففداه بالأم والأب يقول : ما لك يارسول الله ؟

قال : « إني استأذنت ربي في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي ، فدمع عينايَ رحمة لها ، واستأذنتُ ربي في زيارتها فأذن لي ، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ، وليزدكم زيارتها خيراً »[1] .

* * *

حدَّد القرآن الكريم العلاقة مع المشركين بشكل قاطع ، لا يدع أي ثغرة لتحليل أو ما إلىٰ هنالك ، ذلك لأن الله تعالىٰ قال :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٣ـ١١٤] .

وسبب نزول هذه الآيات هي استغفار الرسول ﷺ لعمه أبي طالب[2] .

---

(١) مسند أحمد : ٥/ ٣٥٥ ، مستدرك الحاكم : ١/ ٣٧٦ ، وللحديث روايات عديدة .

(٢) صحيح البخاري : رقمه (٤٣٩٨) ، سنن الترمذي : رقمه (٣١٠٠) ، أسباب النزول للسيوطي : ٢٠٦ .

وأما والدة رسول الله ﷺ فقد ماتت قبل بعثته ، فهي من أهل الفترة ، والتي قال العلماء فيهم : ندع أمرهم إلىٰ الله ، إن شاء عذَّبهم ، وإن شاء غفر لهم .

وما يهمُّ في الأمر ، أن الله لم يأذن لرسوله أن يستغفر لأمه ، وسمح له فقط في زيارتها ، لذلك بكىٰ الرسول ، وأمر الناس أن يزوروا المقابر زيارة اتعاظ وتفكُّر وعبرة ، لا زيارة تفاخر ؛ بأن يعدُّوا الموتى تكاثراً كما قال الله : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر : ١ـ٢] .

وفي زيارة القبور فوائد للمتعظ ، يلمسها في الواقع ، حيث يتذكر الأموات ، وكيف كانوا ، وكيف آل إليه حالهم ، ويتذكر أنهم كما رحلوا وتركوا كل شيء ، فسيرحل ، والبقاء لله الحي الذي لا يموت .

* * *

يا أبا عمير : ما فعل النّغير ؟!

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً ، وكان لي أخ يقال له : أبو عُمير ، قال : فكان إذا جاء رسول الله ﷺ ، فرآه قال : « يا أبا عُمير ، ما فعل النُّغَيْر ؟ »[1] ، قال : فكان يلعب به[2] .

* * *

درسٌ من دروس الأخلاق الرفيعة ، يلقيه الرسول ﷺ علىٰ الأجيال ، لا كلاماً نظرياً ، إنما ترجمة عملية .

فهو يتحبَّب للأطفال ويتودَّد إليهم ، ويتقرَّب منهم ، يمازحهم تارةً ، ويبحث عن حلول لمشكلاتهم تارةً ، ويسألهم عن أحلامهم وآمالهم .

والصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه عندما نقل هذا المشهد الرائع ، ينقله من بيت أهله ، حيث كان الرسول يزورهم ، فما إن يرىٰ أخاه الصغير الذي يقال له : أبو عُمير ، حتىٰ يسأله عن أحبِّ الأشياء إليه وهو طائر صغير يشبه العصفور ، يقال له : النُّغَير ، كان الطفل كثيراً ما يلعب به .

---

(١) النُّغير : جمع نغرة ، وهو طير يشبه العصفور ، محمرّ المنقار .

(٢) سنن الترمذي : رقمه (٣٣٣) ، سنن أبي داود : رقمه (٤٩٦٩) ، مسند أحمد : ٣/ ١١٥ .

وهذا من أنبل الأخلاق وأسماها ، حيث إنه ﷺ ، وهو في مشاغله السياسية والحربية من تدبير شؤون الدولة ، ومحاربة الأعداء من المنافقين واليهود وما إلىٰ هنالك .

ومع ذلك لم ينس حق الأزواج والأولاد ، وهذا غاية العدل والإنصاف ، وهذا الأمر لا يصدر إلا ممن وصفه الله تعالىٰ بقوله :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

* * *

يا صاحب الخُلُق العظيم!!

وعن أنس رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع النَّبي ﷺ ، وعليه بُرْدٌ غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذاً شديداً ، حتىٰ نظرتُ إلىٰ صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البُرْدِ من شدَّة جبذته ، ثم قال : يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك .

قال : فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء!![1] .

* * *

وصف الله تعالىٰ حبيبنا محمد وصفاً رائعاً فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وهذا من كرم الله وفضله ومنَّته ، لذلك قال رسول الله ﷺ في معرض تبيان أن ذلك الأمر مردُّه إلىٰ الله : « أدَّبني ربي فأحسن تأديبي » .

وكان من توجيهات الله لرسوله ، قضايا وأمور تتعلق بالأخلاق والآداب ، من ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (١٢٨) ، مسند أحمد : ٣/ ٢١٠ ، فتح الباري : ٦/ ٢٥١ .

وهكذا كان الرسول ﷺ ، وقد أحسنت السيدة عائشة عندما لخَّصت ذلك بقولها : « كان خلقه القرآن » .

عندما ندرك ذلك ، نفهم كيفية صبر رسول الله ﷺ وتحمُّله لشدة المشركين واليهود والمنافقين والأعراب وما إلىٰ هنالك .

بل كيف كان يقابل ذلك بالأحسن دائماً ﷺ .

* * *

مع الرسول في بيته!!

عن عمرة ، قالت : قيل لعائشة رضي الله عنها : ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته ؟

قالت : كان رسول الله ﷺ بشراً من البشر يَفْلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه[1] .

ـ وفي رواية أخرىٰ ـ : كان ﷺ يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته[2] .

* * *

غالبية من تُكتب سير حياتهم ، من عظماء وقادة وعلماء ومبدعين ، ما إن يصل الحديث إلىٰ خصوصياتهم ، في البيت ، ومع الزوجة والأولاد ، حتىٰ تسدل الستارة وتُضاء الإشارة الحمراء ، مما يعني أن ذلك أمراً خاصاً لا يمكن الاطلاع عليه لأنه من الأسرار!!

إلا حبيب القلب محمد ﷺ ، فليس في سيرة حياته خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها ، إنما كانت سيرته صفحة بيضاء ناصعة يقرؤها كل الناس ، ولعل من حكمة تعدد الزوجات في حياته أن ينقلن كل حركاته في البيت!!

---

(١) مسند أحمد : ٦/٢٥٦ .

(٢) دلائل البيهقي : ١/٣٢٨ .

وفي هذا مفخرة لنا نحن المسلمين ، كيف كان الرسول في بيته : إنه يخدم أهله في كل ما يستطيع أن يقدم لهم الخدمة ، وليس في ذلك ضير أبداً ، إنما في ذلك درس بل دروس للآباء والأزواج عن كيفية التعامل مع الزوجات والأمهات ، ليتعاون الجميع علىٰ أمور الدنيا وما يتعلق بالآخرة ، لينطبق عليهم قوله تعالىٰ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

* * *

إنه الزاهد الحقيقي!!

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلت علىٰ رسول الله ﷺ في خزانته ، فإذا هو مضطجع علىٰ حصيرٍ ، فأدنىٰ عليه إزاره ، وجلس ، وإذا الحصير قد أثَّر في جنبه ، وقلبت عيني في خزانة رسول الله ﷺ ، فإذا ليس فيها شيء من الدنيا غير قبضتين من شعير ، وقبضة من قَرَظٍ نحو الصَّاعين ، وإذا أفيقٌ[1] معلَّقٌ ، أو أفيقان .

قال : فابتدرتْ عيناي ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا بن الخطاب ؟ » .

قلت : يارسول الله ، وما لي لا أبكي ، وأنت صفوة الله عز وجل ، ورسوله وخيرته من خلقه ، وهذه خزانتك ، وهذه الأعجام : كسرىٰ وقيصر ، في الثمار والأنهار ، وأنت هكذا ؟

قال : « يا بن الخطاب ، أما ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ » .

قلت : بلىٰ يارسول الله ، قال : « فاحمد الله عز وجل »[2] .

* * *

---

(١) الأفيق : هو الجلد الذي لم يتم دباغه .

(٢) صحيح مسلم : رقمه (٣٠) ، فتح الباري : ٩/ ٢٧٨ ، دلائل البيهقي : ١/ ٣٣٦ .

فرقٌ كبيرٌ بين من يغرق في الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وبين من يطلب رضا الله عز وجل ، فالأول يلهث وراء تجميع ما فيها من حلال أو حرام ، ويضحِّي في سبيل ذلك بأعز ما يملك ، حتىٰ العرض والدين!!

أما الآخر فليست الدنيا بالنسبة إليه إلا قنطرة يعبر من خلالها إلىٰ محكمة الله سبحانه ، حيث النعيم الدائم في الجنان ، وحيث الخلود والنظر إلىٰ وجه الله سبحانه ، وما الدنيا إلا ساعات تمرُّ وتنقضي ولا يحمل المرء معه إلا العمل .

فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بأعرف خلق الله وهو رسول الله ﷺ ؟!

* * *

تمرٌ... وماء!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنّا آل محمد ﷺ يمرُّ بنا الهلال ، والهلال ، والهلال ، ما نوقد بنارٍ للطعام ، إلا أنه التمر والماء ، إلا أنه حولنا أهل دورٍ من الأنصار ، فيبعث أهل كل دارٍ بغزيرة شاتهم إلىٰ رسول الله ﷺ ، فكان النَّبي ﷺ يسقينا من ذلك اللبن ! !(١) .

* * *

إن أنبياء الله عليهم السلام ، وعلىٰ رأسهم حبيبنا محمد ﷺ كان همّهم الأول رضا الله ، والفوز في الحياة الآخرة ، لذلك كانوا زاهدين في الدنيا ، راغبين عنها ، لا يهمُّهم : إن أقبلت الدنيا أم أدبرت ، فإن أقبلت الدنيا أخذوا منها ، وإن أدبرتْ تقشَّفوا دون اهتمام أو تأثر لنقصان حظِّهم من الدنيا .

وذلك لأن الحياة الدنيا قصيرة فانية ، أما الحياة الآخرة فهي الباقية الأبدية .

ولذلك يجب أن نقتدي بالأنبياء ، صفوة خلق الله ، وبسيِّدنا رسول الله ﷺ ، فلا نتكالب علىٰ الدنيا ، ونجعل همَّنا نيل المزيد من متعها وحطامها الزائل ، وهذا هو حال أكثر المسلمين اليوم ـ وللأسف ـ

---

(١) مسند أحمد : ٦/١٠٨ ، دلائل البيهقي : ١/٣٤١ .

وهذا ما كان يخافه رسول الله ﷺ من بعده ، « ما الفقر أخشىٰ عليكم ، وإنما الدنيا أخاف عليكم ، أن تنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » ، أو كما قال رسول الله ﷺ .

* * *

دموعٌ... ودموع!!

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« اقرأ عليَّ القرآن » .

قلت : يارسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أُنزل ؟

قال : « إني أشتهي أن أسمعه من غيري » .

فقرأت سورة النساء ، حتىٰ بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

قال : « حسبك » ، فرفعت رأسي ، فإذا دموعه تسيل ! ![1] .

* * *

في وصف الله تعالىٰ للمؤمنين : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢-٤] .

وقد وعىٰ هذه الحقيقة الصحابة والتابعون ، لذلك لما سُئل الحسن البصري رحمه الله :

يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ؟

---

(١) صحيح البخاري : ٥/ ١٨٠ ، صحيح مسلم : رقمه (٢٤٧) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٠٢٥) .

فكان جوابه : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والجنة والنار ، والبعث والحساب ، فأنا به مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قوله تعالىٰ : ـ وذكر الآية السابقة ـ فوالله ما أدري أنا منهم أم لا!!

وصدق الله بقوله :

﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٣] .

فكيف يكون الحال إذا كان الأمر متعلقاً بسيدنا رسول الله ﷺ ؟!

* * *

أتصلِّي علىٰ رأس المنافقين ؟!

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :

لما توفي عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، أتىٰ ابنه عبد الله بن عبد الله رسول الله ﷺ فسأله أن يُعطيه قميصه ليكفنه فيه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ يصلي عليه ، فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال : يارسول الله ، أتصلي عليه وقد نهاك الله عنه ؟

فقال رسول الله ﷺ : « إن ربي خيَّرني ، فقال : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] وسأزيد علىٰ السبعين » ، فقال : إنه منافق ، فصلَّىٰ عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] ، قال : فأرسل إلىٰ عمر فأخبره بذلك[1] .

* * *

إنه سيدنا رسول الله ﷺ الذي خاطبه الله سبحانه وتعالىٰ بقوله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾

[آل عمران : ١٥٩] .

---

(١) فتح الباري : ٨/ ٣٣٣ ، صحيح مسلم : ٤/ ٢١٤١ .

فقد كان قلبه صلوات الله عليه يفيض بالرحمة والشفقة ، لا علىٰ المسلمين فقط ، بل امتدَّ ذلك إلىٰ أن يشمل الكفار والمنافقين ، بل حتىٰ الحيوانات ، لذلك جاء في هذا المشهد الرائع : « وسأزيد علىٰ السبعين » مع رجاء أن يغفر الله للجميع ، فهو كما وصفه الله تعالىٰ بقوله : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

* * *

فأسمع بكاء الصبي!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ : « إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز في صلاتي مما أعلم من شدَّة وَجْد أمه من بكائه »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « إذا صلَّىٰ أحدكم للناس فليخفِّف ، فإن فيهم السقيم والضعيف والكبير ، وإذا صلَّىٰ أحدكم لنفسه فليطوِّل ما شاء »[2] .

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال :

جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلانٍ مما يُطيل بنا ، فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشدّ غضباً منه يومئذٍ ، ثم قال : « إن منكم منفِّرين ، فأيكم ما صلَّىٰ بالناس فليتجوَّز ، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة »[3] .

* * *

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٤٧٠) ، مسند أحمد : ٣/ ١٠٩ .

(٢) صحيح مسلم : رقمه (٤٦٧) ، سنن النسائي : ٢/ ٩٤ ، سنن أبي داود : (٧٩٤) .

(٣) صحيح البخاري : ٨/ ٢٨ ، صحيح مسلم : رقمه (٤٦٦) ، سنن ابن ماجه : (٩٨٤) .

تعليمٌ نبويٌّ رائع ، وفيه دروسٌ عظيمةٌ وعبر ، منها :

أن الله لا ينظر إلىٰ الكم ، بل ينظر إلىٰ الكيف ، فربَّ دينار سبق ألف دينار ، وربَّ عمل صالح واحد أفضل عند الله من آلاف صور الأعمال الصالحة!!

لذلك فمن أراد أن يتقدَّم الناس إماماً فعليه أن يخفِّف ، وفي ذلك مراعاةٌ للمريض والعاجز والمشغول والأم التي تخاف علىٰ أطفالها وما إلىٰ هنالك .

أما إذا أراد الصلاة وحده كصلاة الليل ، فليطل ما شاء ، لأن المسألة تتعلق به وحده ، وفي ذلك من الآداب والأخلاق الشيء الكثير .

* * *

خير تربية!!

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال :

إن فتىٰ شاباً أتىٰ النَّبي ﷺ فقال : يارسول الله! ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه ، فزجروه وقالوا : مه مه ، فقال : « ادنُهْ » ، فدنا منه قريباً ، قال : فجلس ، قال : « أتحبُّه لأمك ؟ » ، قال : لا والله ، جعلني الله فداءك ، قال : « ولا الناس يحبُّونه لأمهاتهم » ، قال : « أفتحبُّه لابنتك ؟ » ، قال : لا والله يارسول الله ، جعلني الله فداءك ، قال : « ولا الناس يحبُّونه لبناتهم » ، قال : « أفتحبُّه لأختك ؟ » ، قال : لا والله ، جعلني الله فداءك ، قال : « ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم » ، قال : « أفتحبُّه لعمَّتك ؟ » قال : لا والله ، جعلني الله فداءك ، قال : « ولا الناس يحبُّونه لعمَّاتهم » ، قال : « أفتحبُّه لخالتك ؟ » ، قال : لا والله ، جعلني الله فداءك ، قال : « ولا الناس يحبُّونه لخالاتهم » ، قال : فوضع يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهِّر قلبه ، وحصِّن فرجه » ، فلم يكن بعدُ ذلك الفتىٰ يلتفتُ إلىٰ شيء[1] .

* * *

درسٌ تربوي عملي لا يستطيع القيام به إلا رسول الله ﷺ ، فكثير من

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٥٦ .

الأحيان لا تحتاج المسألة إلىٰ الضرب والزجر ، ولا إلىٰ إلقاء محاضرات فلسفية وما إلىٰ هنالك .

إنما تحتاج إلىٰ إيقاظ ضمير الإنسان ليصحو من ثباته ، ثم ليضع الإنسان نفسه أمام العمل الذي يريد ارتكابه مع الآخرين ، فهل يرضاه لنفسه ، ولذلك خير علاج أن يحبَّ الإنسان للآخرين ما يحبُّه لنفسه ، وأن يكره لهم ما يكره لنفسه ، وهذه قمة الترجمة العملية لمسائل الأخلاق النظرية ، وكل ذلك من فيوضات رسول الله ﷺ .

* * *

فافزعوا إلىٰ ذكر الله!!

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :

انكسفت الشمس يوماً علىٰ عهد رسول الله ﷺ ، فقام رسول الله ﷺ يصلِّي حتىٰ لم يكد يركع ، ثم ركع فلم يكد يرفع رأسه ، ثم رفع رأسه فلم يكد أن يسجد ، ثم سجد فلم يكد أن يرفع رأسه ، ثم رفع رأسه فلم يكد أن يسجد ، ثم سجد فلم يكد أن يرفع رأسه فجعل ينفخ ويبكي ، ويقول : « ربِّ ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم ؟! ربِّ ألم تعدني ألا تعذبهم وهم يستغفرون ، ونحن نستغفرك ؟! » .

فلما صلَّىٰ انجلت الشمس ، فقام ، فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإن انكسفا فافزعوا إلىٰ ذكر الله »[1] .

* * *

مشهد رائع ! !

لو حدث مع أحدٍ ممن يحبُّون المناصب والأبَّهة ، لسخّروه لصالحهم ، أما رسول الله ﷺ فهو الصراط المستقيم الذي به تُصحح المفاهيم ، لذلك أعاد الناس إلىٰ جادة الصواب مبيناً أن المسألة ليست إلا ظاهرة كونية ،

---

(١) صحيح البخاري : ٢/٤٩ ، صحيح مسلم : رقمه (٩١٠) ، سنن النسائي : ٣/ ١٢٤ .

وأنهما آيتان من آيات الله لا تتعلقان بزيد ولا عمرو ، حتىٰ لو كان الأمر يتعلق برسول الله!!

ثم بيَّن كيفية العمل أثناء الكسوف والخسوف ، وأن خير عمل هو الفزع إلىٰ ذكر الله سبحانه وتعالىٰ ، وكان من مواقفه الرائعة دعاؤه وتضرّعه ألا يعذب أمته ، وصدق الله تعالىٰ حين وصفه : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

* * *

وأيُّ عبدٍ أعبَدُ مني ؟!

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال :

كانت امرأة ترافث الرجال ، وكانت بذيئةً ، فمرَّت بالنَّبي ﷺ وهو يأكل ثريداً علىٰ طربال[1] ، فقالت : انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ، ويأكل كما يأكل العبد ، فقال النَّبي ﷺ : « وأيُّ عبدٍ أعبدُ مني ؟ » .

قالت : ويأكل ولا يطعمني ، فقال : « كلي » .

قالت : ناولني بيدك ، فناولها ، فقالت : أطعمني مما في فيك ، فأعطاها ، فأكلت ، فغلبها الحياء فلم ترافث أحداً حتىٰ ماتت[2] .

* * *

لنتعلم من سيدنا رسول الله ﷺ كيفية التعامل مع الناس ، وحتىٰ لو كانوا قساة أو جفاة ، فإن الإحسان في المعاملة واللطف مع الناس يلين القلوب ويحول البغض إلىٰ محبة ، كما يقول الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

ولقد قال أحد الشعراء :

أحسن إلىٰ الناس تستعبد قلوبهم ... لطالما استعبد الإنسان إحسان

---

(١) هو المكان المرتفع .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي : ٩/ ٢١ .

فسيدنا رسول الله ﷺ كان يأتيه الناس وفيهم الصغير الذي لا يعقل ، والبدوي الغليظ الجاف ، والرجل ذو الطبع الشرس ، فيتفهم الجميع ويصبر عليهم ، ولذلك أحبه الجميع ، وما أحوجنا إلىٰ تعلم هذا من سيدنا رسول الله ﷺ .

* * *

... ولكني أوثر هواك!!

عن عطاء قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير علىٰ عائشة رضي الله عنها .

فقال ابن عمر : حدثيني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ .

فبكت ثم قالت : كلُّ أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتىٰ إذا دخل معي في لحافي وألصق جلده بجلدي ، فقال : « يا عائشة ، أتأذنين لي في عبادة ربي ؟! » .

فقلت : إني لأحبُّ قربك ، ولكني أوثر هواك .

قالت : فقام إلىٰ قِرْبَة في البيت ، فلم يكثر صبَّ الماء ثم قام فقرأ القرآن .

قالت : ثم بكىٰ حتىٰ رأيت دموعه بلَّت حجزته[1] ، ثم اتكأ علىٰ جنبه الأيمن ، ثم وضع يده اليمنىٰ تحت خده ، ثم بكى حتىٰ رأيت دموعه قد بلَّت الأرض .

فجاءه بلال يُؤذنه بالصلاة ، فرآه يبكي ، فقال : يارسول الله! أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟!

قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟! » .

---

(١) أي : معقد الإزار .

ثم قال : وما لي لا أبكي ، وقد أنزل الله عليَّ الليلة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠-١٩١] .

ثم قال : « ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها »[1] .

* * *

صلىٰ الله علىٰ النبي العابد المتفكِّر الخائف من الخالق سبحانه وتعالىٰ ، ونسأل الله أن يلزمنا هذا الصراط القويم .

* * *

(١) الوفا بأحوال المصطفىٰ لابن الجوزي : ٢/ ٥٤٠ .

حتىٰ مع الحيوان!!

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النَّبي ﷺ قال :

« دخلت امرأة النار في هرَّة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض »[1] .

وعن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

« لا تتخذوا الدواب كراسي ، فرُبَّ مركوبةٍ عليها هي أكثر ذكراً لله تعالىٰ من راكبها »[2] .

وعن شداد بن أوس قال :

ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحدَّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »[3] .

* * *

الرحمة في ميزان الشريعة الإسلامية فضيلة قرآنية نبويَّة ، تدلُّ علىٰ قوة صاحبها ونبله ، والسبب في ذلك أن صاحب هذه الفضيلة الحميدة لا يحتكر الخير لنفسه ، بل إنه يتحسَّس آلام الآخرين ، ويعيش معهم في

---

(١) صحيح البخاري : ٤/ ١٥٧ ، صحيح مسلم : ٤/ ٢١١٠ .

(٢) مسند أحمد : ٣/ ٤٤٠ ، مستدرك الحاكم : ٢/ ٢٠٠ .

(٣) صحيح مسلم : ٣/ ١٥٤٨ ، سنن الترمذي : ٤/ ٢٣ ، سنن النسائي : ٧/ ٢٢٠ .

كل قضاياهم ، منطلقاً إلىٰ ذلك من قول النَّبي ﷺ : « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلىٰ الله أنفعهم لعياله » .

وهذه الرحمة والرأفة ولين الجانب لا تمتد إلىٰ الأصدقاء والأقارب ، إنما تمتد لتشتمل على كل بني البشر ، كافرهم ومسلمهم ، بل تتوسع أكثر لتشتمل حتىٰ علىٰ الحيوانات والمخلوقات الأخرىٰ ، وفي هذه القصة دليل علىٰ أن الرسول ﷺ هو المثل الأعلىٰ والقدوة الحسنة .

* * *

الرسول يعلّمنا الدعاء!!

في سنن الترمذي بالسند المتصل إلىٰ رسول الله ﷺ أنه قال :

« الدعاء مخُّ العبادة » ، لكن هذا لا ينافي علم الله بما نريد دعاءه ، إنما كما قيل :

قـــالـــوا : أتشكـــو إليـــه مـــا ليـــس يخفـــىٰ عليـــه ؟!
فقلـــت : ربـــي يـــرضـــىٰ ذلَّ العبيـــد لـــديـــه

وقد علَّمنا النَّبي ﷺ نماذج رائعة من الأدعية ، ليجعلها المسلم برنامجاً يومياً أو أسبوعياً يلتجىء من خلالها إلىٰ الله تعالىٰ ، ومن ذلك :

ما رواه الترمذي في السنن : « اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علماً ، الحمد لله علىٰ كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » .

وما رواه البخاري ومسلم في الصحيح : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ، أن تضلّني ، أنت الحي الذي لا تموت ، والجن والإنس يموتون » .

وما رواه البخاري في الصحيح : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي جدّي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدَّمت

وما أخَّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، وأنت علىٰ كل شيء قدير » .

وما رواه الترمذي في السنن : « ربِّ أعني ولا تعن عليّ ، وانصرني ولا تنصر عليَّ ، وامكر لي ، ولا تمكر عليّ ، واهدني وانصرني علىٰ من بغىٰ عليّ ، ربِّ اجعلني لك شاكراً ، لك ذاكراً ، لك راهباً ، مطواعاً لك ، مخبتاً إليك ، أوّاهاً منيباً ، ربِّ تقبَّل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبِّت حجّتي ، وسدِّد لساني ، واهد قلبي ، واسلل سخيمة صدري » .

* * *

الرسول العابد!!

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال :

صليتُ مع النَّبي ﷺ ذات ليلةٍ فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المئة ، ثم مضىٰ فقلت : يصلي بها ركعة فمضىٰ ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسِّلاً ، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّح ، وإذا مرَّ بسؤال سأل ، وإذا مرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذ ، ثم ركع ، فجعل يقول : سبحان ربي العظيم ، فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد ، فقال : سبحان ربي الأعلىٰ ، فكان سجوده قريباً من قيامه!![1] .

* * *

عندما يتعب الإنسان من مشاكل الدنيا وهمومها ، تصبح نفسه في حالة ملل وإرهاق ، فإلىٰ أين الذهاب واللجوء ؟!

يأتي نداء المؤذِّن : حي علىٰ الصلاة ، حي علىٰ الفلاح .

وأي لحظات سعادة يحصل عليها الإنسان من خلال الوقوف بين يدي الله تعالىٰ ؟!

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٧٧٢) ، سنن الترمذي : رقمه (٢٦٢) ، مسند أحمد : ٥/ ٣٩٧ .

فكيف إذا كان هذا الحال مع أعبد العابدين ، سيِّد الأولين والآخرين محمد ﷺ ؟

إنه صلوات الله عليه كان يقول لمؤذِّنه بلال رضي الله عنه : « أرحنا بها ـ بالصلاة ـ يا بلال » ، وفرق كبير بين : أرحنا بها ، وأرحنا منها!!

لقد كانت الصلاة بالنسبة إلىٰ رسول الله ﷺ لا تعني حركات وترتيلات جامدة ، إنما كانت صلاة الروح أمام الخالق عز وجل ، لذلك كان يقول : « وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » .

* * *

أهذه رحمة ؟!

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال :

كنّا عند النَّبي ﷺ ، فأرسلت إليه إحدىٰ بناته تدعوه ، وتخبره أن صبياً لها ، أو ابناً لها في الموت ، فقال الرسول : « ارجع إليها فأخبرها : أن لله ما أعطىٰ ، ولله ما أخذ ، وكل شيء عنده بأجل مسمىٰ ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » ، فعاد الرسول فقال : إنها أقسمت لتأتينها ، قال : فقام رسول الله ﷺ وقام معه سعد بن عبادة ، ومعاذ بن جبل ، وانطلقت معهم ، فرفع إليه صبي ونفسه تقعقع كأنها في شنَّة ، ففاضت عيناه .

فقال له سعد : ما هذا يارسول الله ؟

قال : « هذه رحمة ، جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »[1] .

* * *

إنها لحظات الفراق والوداع ، لذلك يجب أن تبقىٰ الأمور علىٰ ما هي عليه ، دون تشدُّد ولا تنطُّع ، فالفرح له ساعاته ، والحزن له ساعاته أيضاً .

والشريعة لم تحرِّم الحزن والبكاء ، إنما حرَّمت الغلوَّ في ذلك ،

---

(١) صحيح البخاري : ٢/ ١٠٠ ، صحيح مسلم : رقمه (٩٢٣) ، شرح السنة للبغوي : ٥/ ٤٢٦ .

وخاصة إطلاق كلمات الاعتراض علىٰ حكم الله وقضائه وقدره ، لأن ذلك يدخل في باب الكفر بالله تعالىٰ!!

وهذا الخطُّ المعتدل الوسط رسمه رسول الله ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم ، حيث دمعت عيناه وقال : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنا علىٰ فراقك يا إبراهيم لمحزونون ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا : إنا لله وإنا إليه راجعون » .

لذلك يحق للأقارب والأصدقاء والجيران أن يبكوا علىٰ الميت ، خاصة أمه وأخته وزوجه وبناته . . . .

* * *

... وهذا عيدنا!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار ، تغنّيان بما تقاولت الأنصار يوم بُعاث[1] ، قالت : وليستا بمغنيتين .

فقال أبو بكر : أبمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وذلك في يوم عيد .

فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر ، إن لكل قومٍ عيداً ، وهذا عيدنا »[2] .

* * *

وللأسف غالىٰ البعض وتشدَّدوا إلىٰ درجة تحريم كل ما له علاقة بالغناء والفرح ، وكأن الشريعة تُريدنا بشراً نعبس بشكل دائم ! !

لكن واقع الحال يبيِّن أن الغناء كالشِّعر ، حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، فإذا كان الغناء بهدف الترويح عن النفس ، وكلمات الأغنية منضبطة بضوابط الشريعة ، فليس فيها تمجيد لصنم أو مديح لخمر أو

---

(١) هو اليوم الذي كان بين الأوس والخزرج ، وقد قيل فيه الشعر الكثير من الجانبين ، للتفاخر ونحوه .

(٢) صحيح مسلم : رقمه (٨٩٢) ، سنن النسائي : ٣/ ١٩٥ ، سنن ابن ماجه (١٨٩٨) .

وصف فاضح لامرأة معينة ، ولم يتخلل حفلة الغناء موائد الخمر ، ولا الرقص ونحو ذلك ، مما يثير الأمور الجنسية عند الشباب وما إلىٰ هنالك .

فليس في مسألة الغناء أي دليل علىٰ التحريم ، بل يدخل تحت باب : (روِّحوا القلوب ساعة وساعة) .

لأنه ليس من المعقول أن يُمضي الإنسان حياته كما يكون في محراب المسجد أو أمام الكعبة ، بل : « وإن لجسمك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً . . . . » .

وهذا هو المنهج الوسط الذي تعلَّمه الرعيل الأول من سيدنا رسول الله ﷺ .

* * *

الجود الذي لا مثيل له!!

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

جاء رجل إلىٰ النَّبي ﷺ فسأله أن يعطيه ، فقال النَّبي ﷺ :

« ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ ، فإذا جاءني شيء قضيته » ، فقال عمر : يارسول الله ، قد أعطيته فما كلَّفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره ﷺ قول عمر .

فقال رجل من الأنصار : يارسول الله ، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً ، فتبسَّم رسول الله ﷺ وعُرف في وجهه البِشْر لقول الأنصاري ، ثم قال : « بهذا أُمرتُ »[1] .

وفي رواية الإمام أحمد أن النَّبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل قال لي : أنفق أُنفق عليك »[2] .

* * *

المؤمن مطالب بالثقة بما عند الله ، لذلك إذا أتاه سائل يطلب عوناً ما ، عليه ألا يردَّه بحجَّة أنه لم يبق لديه إلا القليل ، إنما عليه أن يُنفق وهو يعتمد في كل ذلك علىٰ الذي خزائنه لا تنفد سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) الشمائل المحمدية للترمذي : رقمه (١٩٠) .

(٢) مسند أحمد : ٢/ ٣١٤ .

ولذلك رسم النَّبي ﷺ هذا الخطَّ الواضح في مسألة الإنفاق ، الذي يقول : أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً .

ومادام أن الله تعالىٰ مطَّلع علىٰ كل الأمور ـ علنها وسرِّها ـ وهو سبحانه الذي أمر بالتصدُّق والإنفاق ، لذلك فليوكل العبد المسألة لله وحده ، الذي خاطب عبده ﷺ بكلام واضح لا يحتاج إلىٰ برهان وشرح ، فقال عز وجل : « أنفق أُنفق عليك » .

* * *

مع مولىٰ رسول الله!!

عن سفينة مولىٰ رسول الله ﷺ قال :

ركبتُ البحر ، فانكسرت سفينتي التي كنت فيها ، فركبت لوحاً من ألواحها ، فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد ، فأقبل إليَّ يريدني .

فقلت : يا أبا الحارث! أنا مولىٰ رسول الله ﷺ .

فطأطأ رأسه وأقبل إليَّ ، فدفعني بمنكبه حتىٰ أخرجني من الأجمة ، ووقفني علىٰ الطريق ، ثم همهم ، فظننتُ أنه يودعني ، فكان ذلك آخر عهدي به[1] .

* * *

إنه الأدب مع رسول الله ﷺ .

وليس ذلك ببعيد ، لأن الله تعالىٰ قال في القرآن الكريم : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء : ٦٤] .

فالله علَّم الحيوانات الأدب مع رسول الله ﷺ ، فأطاعوه كما يطيعه الموحِّدون من البشر .

من هنا نفهم كيف انقلب الأسد الجائع من وحشٍ يريد افتراس

---

(١) دلائل البيهقي : ٦/ ٤٦ ، مستدرك الحاكم : ٣/ ٦٠٦ ، المعجم الكبير للطبراني : ٧/ ٩٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٥/ ٣١٦ .

(سفينة) إلىٰ أسد مؤدب لطيف ، سار معه ووجَّهه حتىٰ أوصله إلىٰ برِّ الأمان!!

ورحم الله ابن سيد الناس عندما قال :

والليث أذوىٰ في (سفينة) مفرداً بـالـروم فـي فيفـاء قفـر بلقـع
مـازال يكلـؤه إلـىٰ أن دلَّـهُ عند الأمان علىٰ سواء المشرع

وقد صحَّ كثير من الأحداث تشبه قصة الأسد مع (سفينة) .

* * *

اقض بيني وبين زوجتي!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

كان بيني وبين رسول الله ﷺ كلامٌ ، فقال : « من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين أبا عبيدة بن الجراح ؟ »

قلت : لا ، ذلك رجل لن يقضي لك عليَّ .

قال : « أترضين بعمر ؟ » ، قلت : لا ، إني أفْرَقُ من عمر ، قال : « فالشيطان يَفْرَقُه » .

قال : « أترضين بأبي بكر » ، قلت : نعم .

فبعث إليه فجاء ، فقال رسول الله ﷺ : « اقض بيني وبين هذه » .

قال : أنا يارسول الله ؟! قال : « نعم » .

فتكلَّم رسول الله ﷺ ، فقلت له : اقْصِدْ يارسول الله .

قال : فرفع أبو بكر يده فلطم وجهي لطمةً بدرَ منها أنفي ومنخرايَ دماً ، وقال :

لا أبا لكِ! فمن يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟!

فقال رسول الله ﷺ : « ما أردنا هذا » .

وقام فغسل الدم عن وجهي وثوبي بيده[1] .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفىٰ ، لابن الجوزي : ٢/ ٦٥٢ .

يا له من درسٍ عظيمٍ للأزواج!!

والذي خلق الخلق لو سار الأزواج والزوجات علىٰ ما جاء في سيرة رسول الله ﷺ لعاشوا حياة هادئة لا تسمع فيها لاغية .

فالمرأة كالرجل لها حقوق وعليها واجبات ، وقد يعتريها في بعض الحالات ضعف وإرهاق وتعب نفسي ، فهل علىٰ الزوج أن يرفع لافتة التقريع واللوم ؟!

هل عليه أن يضع علىٰ عينيه نظارة سوداء لا يرىٰ من خلالها إلا النقاط السوداء ؟

أبداً ، يقول الله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، ويقول النَّبي ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

* * *

من لك بلا إله إلا الله ؟!

قال ابن إسحاق : حدثني شيخ من أسلم عن رجال من قومه قالوا : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي إلىٰ أرض بني مرّة وبها مرداس بن نهيك حليف لهم من بني الحرقة فقتله أسامة .

قال أسامة : أدركته أنا ورجل من الأنصار ، فلما شهرنا عليه السلاح قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فلم ننزع عنه حتىٰ قتلناه ، فلما قدمنا علىٰ رسول الله ﷺ أخبرناه خبره .

فقال : « يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟ » فقلت : يارسول الله ! إنما قالها تعوُّذاً من القتل ، فقال : « من لك بلا إله إلا الله ؟ » .

فوالذي بعثه بالحق نبيّاً مازال يردِّدها عليَّ ، حتىٰ لوددت أن ما مضىٰ من إسلامي لم يكن ، وأني أسلمت يومئذٍ ولم أقتله[1] .

* * *

إننا كبشرٍ لا نحمل مهمة محاسبة الخلق ، ولا التفتيش عن أسرارهم وما إلىٰ هنالك ، لأن هذه قضية اختصَّ الله سبحانه وتعالىٰ بها ذاته .

إنما لنا الظاهر ولله الباطن ، فإذا تشهَّد إنسان بالشهادتين فقد صار منا ، مسلم من المسلمين ، له ما لنا وعليه ما علينا ، ولا يحق لأي واحد منا أن يبحث عن السبب أو الدافع الذي جعله يفعل ذلك .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/ ٦٢٦ ، أسد الغابة لابن الأثير : ٤/ ٢٣٤ .

وليت هذه المسألة يتعلَّمها المؤمنون المتخاصمون ، والذين يقتتلون بالسلاح ، مما أدىٰ إلىٰ سقوط عدد كبير من الضحايا ، لقاء فتاوىٰ ما أنزل الله بها من سلطان ، خاصة تكفير المسلم لأخيه المسلم ، وما الوضع الأفغاني الحالي الأخير إلا دليل حي علىٰ هذا الأمر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

* * *

قدوة المتواضعين!!

قال عمر رضي الله عنه : سمعت النَّبي ﷺ يقول :

« لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله »[1] .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه :

كان رجلٌ أسود يقمّ[2] المسجد فمات ، فسأل النَّبي ﷺ عنه فقالوا : مات ، قال : « أفلا كنتم آذنتموني به ؟ دلُّوني علىٰ قبره » ، فأتىٰ قبره ، فصلَّىٰ عليه[3] .

وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنه :

(أُتي النَّبي ﷺ برجلٍ تُرعَدُ فرائصه ، قال : فقال له : « هوِّن عليك ، فإنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء » .

قال : ثم تلا جرير بن عبد الله البجلي : ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۚ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قَ : ٤٥])[4] .

---

(١) صحيح البخاري : ٤/ ٢٠٤ .
(٢) أي : يكنس وينظّف .
(٣) سنن أبي داود : ٣/ ٥٤١ ، سنن النسائي : ٤/ ٤٠ ، سنن البيهقي : ٤/ ٣٢ .
(٤) سنن ابن ماجه : ٢/ ١١٠١ ، مستدرك الحاكم : ٢/ ٤٦٦ .

وعن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما قالا :

كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهرانَيْ أصحابه ، فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو حتىٰ يسأل!![1] .

فهل اتَّخذ الناس ، في كل زمان ومكان ، سيرة رسول الله ﷺ قدوة وأسوة ؟ بدل اللهاث وراء أناس لا يقرؤون جزءاً ضئيلاً من سيرة رسول الله ﷺ ؟!

* * *

(١) سنن النسائي : ٨/ ١٠١ ، سنن أبي داود : ٥/ ٧٤ .

يصلّي وهو يحمل أمامة!!

عن أبي قتادة السلمي رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ يصلّي وهو حامل أمامة ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام رفعها ! ![1] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال :

رأيت النَّبي ﷺ ، والحسن بن علي علىٰ عاتقه ، يقول : « اللهم إني أحبّه فأحبّه »[2] .

وعن أم قيس بنت محصن رضي الله عنها قالت :

أتيت بابن لي صغير لم يأكل الطعام إلىٰ رسول الله ﷺ ، فأجلسه رسول الله ﷺ في حجره ، فبال علىٰ ثوبه ، فدعا بماءٍ فنضحه ولم يغسله ! ![3] .

* * *

إنه درسٌ عظيم لجميع الآباء والأمهات ، لا من خلال إلقاء الخطب والمواعظ ، وإنما من خلال السيرة العملية لسيدنا رسول الله .

لذلك يجب أن نرحم الأطفال ونرعاهم ، لأنهم رياحين صغيرة

---

(١) سنن النسائي : ٢/ ٩٥ ، مسند أحمد : ٥/ ٣٠٣ .

(٢) صحيح مسلم : رقمه (٣٧٨٦) ، سنن ابن ماجه : رقمه (٦٥٨) .

(٣) سنن أبي داود : رقمه (٣٧٤) ، سنن الترمذي : رقمه (٧١) .

وورود جميلة تتأثر بأي شيء ، ويؤثر ذلك في نفوسهم ، مصداق ذلك قول الرسول ﷺ : « من كان له صبيٌّ فليتصابَ له » ، أي فلينزل الأب إلىٰ مستوىٰ طفله ، فيمازحه ويلاعبه ويحنُّ عليه ويحمله ويتحمَّله ـ حتىٰ لو كان ذلك في صلاته ـ .

أما القسوة والشدة فلا تولِّد في نفوس الأطفال إلا العقد النفسية والانكماش في المجتمع ، وليس هذا من الدين الحنيف بشيء .

* * *

اللهم أمتي أمتي

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] .

وقول عيسىٰ عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] .

فرفع يديه ، وقال : « اللهم أمتي أمتي » وبكىٰ .

فقال الله عز وجل : « يا جبريل ، اذهب إلىٰ محمد ، وربك أعلم ، فسله : ما يبكيك ؟ »

فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ، وهو أعلم .

فقال الله : « يا جبريل ، اذهب إلىٰ محمد ، فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسُوءُك »[1] .

* * *

دخل وفد من علماء العراق علىٰ الإمام عليّ كرَّم الله وجهه ، يريدون أن يسألوه عن بعض الإشكاليات ، لكن الإمام بادرهم بسؤال قال فيه :

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٢٠٢) ، سنن البيهقي : ٧/ ٢٠٥ ، شرح السنة للبغوي : ١٥/ ٦٦ .

ماذا يقول علماء العراق بأرجىٰ آية في كتاب الله تعالىٰ ؟

فأشاروا إلىٰ أكبر علمائهم ، فقال : يا إمام ، إن أرجىٰ آية هي قول الله تعالىٰ :

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فقال الإمام : ولكنّا آل بيت النبي لنا رأي آخر ! !

إنّا نرىٰ أن أرجىٰ آية في كتاب الله ، هي قول الله تعالىٰ لحبيبه المصطفىٰ في سورة الضحىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ : ٥] ، والذي يُرضي رسول الله ﷺ ألا يُدخل الله أحداً من أمته النار ! !

* * *

يارسول الله : اكسُنيها!!

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال :

جاءت امرأة ببردة ، فقالت : يارسول الله إني نسجت هذه بيدي أكسوكها ، فأخذها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها ، فخرج إلينا وإنها لإزاره ، فحسَّنها[1] رجل من القوم ، فقال : يارسول الله اكسُنيها ، قال : « نعم » .

فجلس ما شاء الله في المجلس ، ثم رفع فطواها ، ثم أرسل بها إليه ، فقال له القوم : ما أحسنت سألتها إياه ، وقد عرفته أنه لا يردُّ سائلاً .

فقال الرجل : والله ما سألتها إلا لتكون كفني يوم أموت ، قال سهل : فكانت كفنه ! ![2] .

* * *

إنه لموقف رائع جميل يتجلَّىٰ لنا فيه الرسول ﷺ الرجل الكريم الشهم ، الذي لا يردُّ سائلاً ، ولا يبخل بما عنده ، حتىٰ مع أعدائه ، وكيف لا ؟ وقد وصفه الله سبحانه بقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

---

(١) أي : قال إنها حسنة .

(٢) مسند أحمد : ٥/ ٣٣٣ ، الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي : ١/ ٢٩١ .

ونلاحظ أيضاً شدة حب الصحابة رضوان الله عليهم لسيدنا رسول الله ﷺ ، وحرصهم علىٰ المحافظة علىٰ كل ما يتعلق بسيدنا رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحرصون علىٰ التقاط شعراته التي تسقط من رأسه ، وعلىٰ جمع حبات العرق الذي يتقاطر من جسده الشريف ، يأخذونها للتداوي بها تيمناً بها وتبركاً ، وكذلك الأمر بالنسبة لملابسه الشريفة ولأدواته التي كان يستعملها . . إلخ ، كل ذلك حباً وتعظيماً له صلوات الله عليه .

* * *

ما كان فراش رسول الله ؟!

عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنهم قال :

سُئلت عائشة رضي الله عنها : ما كان فراش رسول الله ﷺ في بيتك ؟

قالت : من أدَمٍ حشوه ليف .

وسُئلت حفصة رضي الله عنها : ما كان فراش رسول الله ﷺ ؟

قالت : مِسْح[1] نثنيه ثنيتين ، فينام عليه ، فلما كان ذات ليلة قلت : لو نثنيه بأربع ثنيات كان أوطأ له ، فثنيناه بأربع ثنيات ، فلما أصبح قال : « ما فرشتموني الليلة ؟ »

قالت : قلنا : هو فراشك ، إلا أنّا ثنيناه بأربع ثنيات ، قلنا : هو أوطأ لك ، قال : « ردُّوه لحاله الأولىٰ ، فإنه منعني وطْأَته صلاتي الليلة »[2] .

* * *

صلىٰ الله عليك يا سيدي يارسول الله ، فقد ضربت أروع الأمثلة في القناعة والزهد .

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول : مات رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبدٍ إلا شطر شعير في رف لي ، وقال لي

---

(١) هو كساء خشن يعد للفراش ، والمسح : البلاس أو الكساء من شعر .

(٢) الشمائل المحمدية للترمذي : رقمه (٣٢٢) .

صلوات الله عليه : « إني عرض علي أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً!! فقلت يارب : أجوعُ يوماً ، وأشبعُ يوماً ، فأما اليوم الذي أجوعُ فيه فأتضرعُ إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبعُ فيه فأحمدك وأثني عليك » .

هذا هو سيدنا رسول الله ﷺ ، فهل نحاول الاقتداء به والتعلُّم منه .

* * *

اللهم ارحمني ومحمداً!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد ومعه أصحابه ، إذ جاء أعرابي فبال في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله : مَهْ مَهْ .

فقال رسول الله ﷺ : « لا تزرموه »[1] .

ثم قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء ، إنما هي لقراءة القرآن وذكر الله والصلاة » .

ثم دعا رسول الله ﷺ بدلْوٍ من ماء فشنَّه[2] عليه[3] .

* * *

وزاد في رواية أخرىٰ :

أن الأعرابي لما رأىٰ ما حدث ، رفع كَفَّيْه إلىٰ السماء وقال : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم بعدنا أحداً!!

وظن هذا الأعرابي أن رسول الله ﷺ سيقول هل : اذهب إلىٰ أحد

---

(١) أي : لا تقطعوا عليه بوله حتىٰ لا يتضرَّر .

(٢) أي : صبَّه .

(٣) صحيح مسلم : رقمه (٢٨٥) ، سنن النسائي : ١/ ٤٧ ، سنن ابن ماجه : رقمه (٥٢٨) .

أغنياء الصحابة ، كعبد الرحمن بن عوف ، أو عثمان بن عفان ، ليعطوك ما تريد من الأموال لقاء هذا الدعاء!

أبداً ، إنما قال له ﷺ : « لقد ضيّقت واسعاً يا أعرابي » ، فالله سبحانه وتعالىٰ يقرر : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

وهذا ما نراه في كل أمور القرآن والسنة وما ينجم عنهما من تعليمات ، أي أن يكون الدعاء للجماعة لا للفرد :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

[الفاتحة : ٥ـ٦] .

* * *

ادع الله عليهم!!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

جاء الطفيل بن عمرو الدَّوْسي إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إن دوساً قد عَصَتْ وأبَتْ فادع الله عليها .

فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه ، فقال الناس : هلكَتْ دوس .

فقال : « اللهم اهد دوساً وائْتِ بهم »[1] .

* * *

درسٌ عظيمٌ من دروس رحمة رسول الله ﷺ .

حيث انطلق واحد من جنوده ، وهو الطفيل بن عمرو ، إلىٰ قبيلة (دوس) وذكَّرهم ودعاهم إلىٰ التوحيد ونبذ الشرك وما إلىٰ هنالك .

لكن القوم ما كان منهم إلا العناد والاستهزاء والسخرية ، إنهم جحدوا واستكبروا وأصرُّوا علىٰ ما هم عليه ، مما جعل الطفيل يهرع إلىٰ رسول الله ﷺ يشكو إليه حالهم ، ثم طلب منه أن يَدْعُ الله عليهم!

وبالفعل توجَّه رسول الله نحو القبلة ، ورفع يديه ، وأمَّن الصحابة

---

(١) مسند أحمد : ٢/٤٤٨ .

وراءه وهم يعلمون أن دعاء الرسول مستجاب ، وأنه الهلاك سيحيق لا محالة بهذه القبيلة .

لكن نبي الرحمة محمداً ما كان منه إلا أن طلب من الله الهداية لهم ، كيف لا ؟ وهو الذي قال الله فيه :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

* * *

خوف الرسول علىٰ أمته!!

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثلكم ، كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبُّهُنَّ عنها ، فأنا آخذٌ بحجزكم عن النار ، وأنتم تفلَّتون من يدي »[1] .

* * *

في القرآن الكريم إشارات إلىٰ مدىٰ حرص النَّبي ﷺ علىٰ أمته ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ ﴾ [النحل : ٣٧] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذا الأمر ـ أي : مسألة عدم سماع بعضهم لمنهج دعوته ـ كان يزعجه ، وذلك من باب خوفه عليهم ، كما في قول الله تعالىٰ :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

وقوله أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] .

وقوله أيضاً : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

[النحل : ١٢٧ـ١٢٨] .

---

(١) دلائل البيهقي : ١/ ٣٦٧ .

وقوله أيضاً : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف : ٦] .

فالله تعالىٰ يبين له ، أن مهمتك يا محمد ﷺ الإنذار والتبشير وتبليغ الرسالة ، وليس مهمتك هداية الخلق أجمعين .

إنه ﷺ كان يخاف علىٰ أمته ، ويحرص علىٰ هدايتها وإبعادها عن طرق الضلالة ، لكي ينجو بها من نار جهنم ، فصلوات الله وسلاماته عليه في كل وقت وحين .

* * *

حتىٰ تورَّمت قدماه!!

عن المغيرة بن شُعبة رضي الله عنه قال :

قام رسول الله ﷺ حتىٰ تورَّمت قدماه ، فقيل : يارسول الله ، أليس قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟

قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[1] .

* * *

لقد قيل : من عرف ربه قام بحقِّه .

والأنبياء عليهم السلام جميعاً ، عرفوا ربَّهم فاجتهدوا في عبادته والتقرُّب إليه من أجل شكره علىٰ نعمه .

وسيدنا رسول الله ﷺ أفضل الخلق وخاتم النبيين ، هو خير من عرف ربَّه وقام بحقِّه ، فهو بهذا أصبح أفضل الناس أجمعين .

نقرأ في سيرته فنراه يجتهد في العبادة ، ويقف الساعات الطوال بين يدي ربه عز وجل يناجيه ، ويدعوه ، ويشكره علىٰ نعمائه .

مستحضراً عظمة الله جل وعلا ، مجتهداً في تأدية حق الله سبحانه عليه ، فحقُّ الله علىٰ العباد عظيم ، فهو الخالق الرازق المنعم المتفضِّل ، يقول الله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

---

(١) سنن الترمذي : ٢/ ٢٦٨ ، فتح الباري : ٣/ ١٤ .

فكم نحن مقصرون!! هذا سيدنا رسول الله ﷺ يصلي ويصلي ويدعو ويبكي ويطيل في الصلاة حتىٰ تتورم قدماه!!

ونحن المؤمنون المثقلون بالخطايا لا نكاد نؤدي إلا الفرائض ونؤديها بتكاسل وتثاقل ؟! فلنحاول تدارك الأمر عسىٰ أن يرحمنا الله .

* * *

فبكىٰ رسول الله!!

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :

اشتكىٰ سعد بن عبادة شكوىٰ ، فأتىٰ رسول الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود .

فلما دخل عليه وجده في غشية ، فقال : « أقد قضىٰ ؟ » .

قالوا : لا ، يارسول الله ، فبكىٰ رسول الله ﷺ ، فلما رأىٰ القوم بكاء رسول الله ، بكوا ، فقال :

« ألا تسمعون ، إن الله لا يعذِّب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذِّب بهذا ـ وأشار إلىٰ لسانه ـ أو يرحم »[1] .

* * *

سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي ، أبو ثابت : صحابي ، من أهل المدينة المنورة ، كان سيد الخزرج ، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام ، وكان يلقب في الجاهلية بالكامل ـ لمعرفته الكتابة والرمي والسباحة ـ وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، وشهد أُحداً والخندق وغيرهما ، وكان أحد النقباء الاثني عشر ، وبقي حتىٰ أوائل

---

(١) صحيح البخاري : ١٠٦/٢ ، صحيح مسلم : رقمه (١٦٢٥) ، مسند أحمد : ٤٤١/٢ .

خلافة عمر رضي الله عنه ، فرحل إلىٰ الشام ، ومات بحوران عام (١٤ هـ)[1] .

وهذا المشهد الجميل ينقله كتاب الأحاديث النبوية والسيرة والتاريخ من المدينة المنورة في زمن المصطفىٰ ﷺ .

وفيه من الدروس الشيء الكثير ، ومنها العلاقة الحميمة بين القائد الأعظم رسول الله ﷺ وبين جنوده ، ومنها الرحمة والحزن منه ﷺ علىٰ مرض أو وفاة أحد الصحابة ، ومنها كيفية الحزن المباح .

* * *

(١) للتوسّع يراجع : صفة الصفوة لابن الجوزي : ١/ ٢٠٢ .

كيف يلقىٰ الله وعنده بعض الدنانير ؟!

عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال :

دخلت أنا وعروة بن الزبير علىٰ عائشة رضي الله عنها ، فقالت : لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرضٍ له ؟

قالت : وكانت عندي سبعة دنانير ، قالت : فأمرني نبي الله ﷺ أن أفرِّقها ، قالت : فشغلني وجع النَّبي ﷺ حتىٰ عافاه الله تعالىٰ .

قالت : ثم سألني عنها فقال : « ما فعلتِ ، أكنت فرَّقت السبعة الدنانير ؟ » .

قالت : لا والله ، لقد كان شغلني وجعك ، قالت : فدعا بها فوضعها في كفِّه فقال : « ما ظنّ نبيّ الله لو لقي الله تعالىٰ وهذه عنده »؟![1] .

* * *

أراد المعلِّم الأعظم صلوات الله عليه أن يخرج من الدنيا وليس لديه أي أمرٍ له علاقة بها ، وذلك بهدف ترك ما للدنيا في الدنيا ، وحمل ما للآخرة للآخرة فقط !

والدنانير وكل المال للدنيا ، فهو الوسيلة وليس الغاية ، لذلك لماذا يُتعبُ الإنسان نفسه في جمعه من الحلال أو الحرام ، وهو يعلم يقيناً أنه تاركه لا محالة ، وهو الذي لن يستطيع أن يأخذ معه إلىٰ قبره أدنىٰ كمية

---

(١) مسند أحمد : ٦/ ١٠٤ ، دلائل البيهقي : ١/ ٣٤٦ .

من المال أو زخارف الدنيا ، والسبب في أن الله تعالىٰ وظَّف علىٰ بوابات قبورنا جمارك للتفتيش ، تحمل لافتة قرآنية مكتوب عليها : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

ولذلك ، فالكيِّس من حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يرحل إلىٰ الله تعالىٰ ، ليعلم النتيجة من هنا ، فإن كان خيراً فليحمد الله ، وإن كان غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه ، لذلك جاء هذا الدرس النبوي بما فيه من عظات وبلاغات ليحذِّر المؤمنين من الاستغراق في أمور الدنيا .

* * *

قولوا : رحمك الله!!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

أُتـي رسـول الله ﷺ بـرجـل قـد شـرب ، فقـال رسـول الله ﷺ : « اضربوه » .

فمنا الضارب بيده ، ومنا الضارب بنعله ، ومنا الضارب بثوبه .

فلما انصرف قال بعض القوم : أخزاك الله .

فقال رسول الله ﷺ : « لا تقولوا هكذا ، ولا تعينوا الشيطان عليه ، ولكن قولوا : رحمك الله »[1] .

* * *

فـي قـول النَّبـي ﷺ : « كـل ابـن آدم خطَّـاء ، وخيـر الخطَّـائيـن التوابون »[2] إشارة واضحة إلىٰ عدم العصمة لأحد ، إلا لمن عصمه الله تعالىٰ من الأنبياء والمرسلين .

لذلك إذا وقع الإنسان تحت وسوسة شيطان ـ من الإنس أو الجن ـ أو نتيجة هوىٰ متَّبع ، أو نتيجة زخارف الدنيا وشهوات النفس وما إلىٰ هنالك .

فهل توصد أمامه أبواب الوصول إلىٰ الله تعالىٰ ؟

---

(١) سنن أبي داود : رقمه (٤٤٧٧) ، مسند أحمد : ٢/ ٣٠٠ .

(٢) سنن الترمذي : رقمه (٢٤٩٩) .

وهل عليه أن يُقدم علىٰ التخلُّص من حياته الدنيئة عن طريق الانتحار ونحو ذلك ؟

أبداً ، فأبواب رحمة الله وتوبته مفتوحة في الليل والنهار ، وما علىٰ العبد إلا أن يلجأ إلىٰ الله معترفاً بتقصيره ، داعياً مولاه أن يغفر زلاته وخطيئاته ، مستشفعاً برسول الله في ذلك .

ومن هنا فعلىٰ الآخرين ألا يجعلوا الشيطان عوناً علىٰ أخيهم الذي أخطأ ، وذلك عن طريق الشماتة ونحو ذلك ، وإنما عليهم أن يكونوا عوناً له ، راجين من الله أن يغفر له ولهم .

* * *

إن لي إليك حاجة!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

عرضت لرسول الله ﷺ امرأة في طريق من طرق المدينة ، فقالت : يارسول الله إن لي إليك حاجة ، فقال : « يا أم فلان ، اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك » .

قال : ففعلتْ ، فقعد إليها رسول الله ﷺ حتىٰ قضت حاجتها ! ![1] .

* * *

في كل سيرته نجد أنه صلوات الله عليه كان مثال العبد المتواضع البعيد عن الغرور والتكبُّر ، فقد كان يجيب دعوة العبد ويصغي للأمة ، ولا ينصرف عنها حتىٰ تنصرف! لا تستطيع أن تميزه عن أصحابه أبداً ، وكثيراً ما قرأنا في سيرته الطاهرة أن أعرابياً دخل يسأل فينظر إلىٰ الناس ويقول : أيُّكم محمد ؟!

لقد كان يأكل مما يأكل الناس! ويلبس مما يلبسون!

وأما في بيته فقد كان يخدم أهله! يحلب الشاة لهم! يرقع الثوب! يخصف النعل! يعلف الدابة! يطحن الشعير بالرحىٰ! يحمل حاجاته في

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٢٣٢٦) ، سنن أبي داود : رقمه (٤٨١٨) ، مسند أحمد : ٣/ ٢١٤ .

السوق! يعقل البعير! يتناول طعامه علىٰ الأرض مع الخادم! وقد كان يهتم بأحوال المساكين والأرامل واليتامىٰ ، فيسأل عنهم ويحاول مساعدتهم!

ويدخل عليه أحد الرجال فتصيبه رعدة من هيبة النَّبي ﷺ فيقول له :

« هوِّن عليك ، فإنما أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد » .

* * *

طعام رسول الله!!

عن عبيد الله بن علي ، عن جدته سلمىٰ رضي الله عنها قالت :

أتاني الحسن بن علي وابن عباس وابن جعفر رضي الله عنهم ، فقالوا لي :

اصنعي لنا طعاماً ، مما كان يُعجب رسول الله ﷺ ويُحسن أكله .

فقالت : يا بَنيَّ لا نشتهيه اليوم .

قالوا : بلىٰ اصنعيه لنا .

قال : فقامت فأخذت شيئاً من الشعير وطبخته ، ثم جعلته في قِدْرٍ ، وصبَّت عليه من زيتٍ ، ودقَّت الفلفل والتوابل وقرَّبته إليهم .

فقالت : هذا مما كان يعجب النَّبي ﷺ ويُحسن أكله[1] .

* * *

في مسألة الزهد في الدنيا يقف الناس أمامها علىٰ طرفي نقيض ، فمنهم من يفهم من ذلك ترك كل شيء له علاقة بالدنيا ، بينما يقف آخرون علىٰ النقيض تماماً ، لكن الحق المبين ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وهذا ما عبَّر عنه الإمام الغزالي رحمه الله بقوله : (وإنما الناجي منها فرقة واحدة ، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ

---

(١) الأنوار في شمائل النبي المختار ، للبغوي : ٢/ ٦٢٥ .

وأصحابه ، وهو ألا يترك الدنيا بالكلية ، ولا يقمع الشهوات بالكلية ، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولا يتبع كل شهوة ، ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من الدنيا ، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ، وبحفظه علىٰ حدّ مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوىٰ به البدن علىٰ العبادة ، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك)[1] .

وهذا درس من الزهد النبوي المعتدل :

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

* * *

(١) إحياء علوم الدين : ٢/ ١٦٠ .

واحشرنا في زمرة المساكين!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة » .

فقالت عائشة : لم يارسول الله ؟

قال : « إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، يا عائشة لا تردّي المسكين ولو بشقِّ تمرة ، يا عائشة أحبِّي المساكين وقرِّبيهم فإن الله يقرِّبك يوم القيامة »[1] .

* * *

المسكين : هو من ليس عنده ما يكفي عيالَهُ .

وفي الحديث الشريف : « ليس المسكين الذي تردُّه الأكْلَةُ والأكلتان ، ولكن المسكين الذي ليس له غنىً ، ويستحي ، أو لا يسأل الناس إلحافاً » .

وقد تحدث القرآن الكريم عن المسكين قرابة (٢٣) مرة ، من ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٨ـ٩] .

---

(١) سنن الترمذي : ٤/ ٥٧٧ ، سنن ابن ماجه : ٢/ ١٣٨١ .

لهذا كله يعلِّمنا رسول الله ﷺ أن نحبَّ المساكين ، ونعطف عليهم ، ونقرِّبهم ، ونعطيهم ولو الشيء القليل ـ حتىٰ ولو كان ذلك جزءاً من تمرة ـ والهدف من ذلك أن يرقَّ قلب العبد ، لأن العيشة مع المساكين تجعل الإنسان أقرب إلىٰ الله تعالىٰ ، أما الجلوس مع المتكبِّرين وغلاظ القلوب والظلمة فإنها تجعل الإنسان أقرب إلىٰ الشيطان وكل ما يغضب الله ، نسأل الله أن يحشرنا في زمرة المساكين يوم القيامة .

* * *

قبيل الوفاة!!

عن عائشة رضي الله عنه قالت :

رجع إليَّ رسول الله ﷺ ذات يومٍ من جنازةٍ بالبقيع وأنا أجدُ صداعاً في رأسي ، وأنا أقول : وا رأساه .

فقال : « ما ضرّكِ لو مُتِّ قبلي فغسلتُكِ وكفَّنتُكِ ، ثم صلَّيتُ عليكِ ودفنتُكِ ؟ » .

فقلت : لكأني بكَ والله لو فعلت ذلك ، لقد رجعتَ إلىٰ بيتي فأعْرستَ فيه ببعض نسائك!!

فتبسَّم رسول الله ﷺ ، ثم بُدىء في وجعه الذي مات فيه[1] .

* * *

العلاقة بين الرسول ﷺ وبين زوجاته ، لم تكن مجرد أداء أدوارٍ ما ، أو وظائف تخصُّ كل واحد منهم .

إنما القضية تحمل طابع الرحمة ، والعطف ، والحنان ، من حيث إن المسلم ينفتح علىٰ كل عباد الله ، لأن الرسول علمه : « أن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلىٰ الله أنفعهم لعياله » .

أما الزوجة والأولاد فلهم امتياز خاص في مسألة التعامل ، لذلك قال

---

(١) سنن ابن ماجه : رقمه (١٤٦٥) ، مسند أحمد : ٦/ ٢٢٨ .

الرسول ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

وفي هذا المشهد نرىٰ شيئاً رائعاً :

ظنَّت عائشة رضي الله عنها أن الرسول يحبُّ فراقها ، لكن الحقيقة أنه عليه الصلاة والسلام قصد تعجيلها بين يديه ليُقرب اجتماعهما ، وذلك لأنها كانت أحبَّ الناس إليه ، وكان لا يصبر عنها ، أليس هو القائل : « حُبِّب إليَّ من الدنيا : النساء والطيب ، وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » .

* * *

واكرب أباه!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

لما ثقل النَّبي ﷺ جعل يتغشّاه ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرب أباه ، فقال لها : « ليس علىٰ أبيك كربٌ بعد اليوم » ، فلما مات قالت : يا أبتاه! أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه! في جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه! إلىٰ جبريل ننعاه .

فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا علىٰ رسول الله ﷺ التراب ؟![1] .

وعنه أيضاً قال :

لما وجَدَ رسول الله ﷺ من كرب الموت ما وجد ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرباه!

فقال النَّبي ﷺ : « لا كرب علىٰ أبيك بعد اليوم ، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتاركٍ منه أحداً لموافاة يوم القيامة »[2] .

* * *

التسليم المطلق لله تعالىٰ ، هو المنهج الذي علَّمنا إياه القرآن الكريم ، وذلك لكثرة ما في الدنيا من فتن وابتلاءات وأمراض وفقدان أخٍ

---

(١) صحيح البخاري : ٣/ ٦٥ .

(٢) الشمائل المحمدية للترمذي : رقمه (٣٧٩) .

وصديقٍ وقريب وحبيب وما إلىٰ هنالك ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦ـ١٥٧] ، ورسول الله ﷺ يعلمنا أن الموت كأس لابد للجميع أن يشرب منه ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] ، ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] .

المهم أن ينضبط الإنسان بما يريده الله ورسوله ، في الفرح أو الحزن .

* * *

فاذكر مصابك بالنبي محمد!!

قال عليه الصلاة والسلام في مرضه : « يا أيها الناس! أيّما أحدٍ من الناس ، أو المؤمنين أُصيب بمصيبةٍ فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري ، فإن أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبةٍ بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي »[1] .

وقال أبو الجوزاء البصري (ت : ٨٣ هـ) :

كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ، ويقول : عبد الله! ثق بالله ، فإن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

* * *

ورحم الله القائل :

اصبر لكل مصيبةٍ وتجلَّدِ ... واعلم بأنَّ المرءَ غيرُ مُخلَّدِ
واصبر كما صَبَرَ الكرامُ فإنها ... نُوبٌ تنوبُ اليومَ تُكشفُ في غدِ
وإذا أتتكَ مصيبةٌ تشجىٰ بها ... فاذكر مُصابكَ بالنبيِّ محمدِ

ذلك لأن قضية انتقال أعظم المخلوقات علىٰ وجه الإطلاق وهو النبي ﷺ ، ومغادرته الدنيا ، وقبض روحه ، وإنزاله في القبر ، والصلاة عليه ، وما إلىٰ هنالك من إجراءات ترافق الموت .

---

(١) سنن ابن ماجه : رقمه (١٥٩٩) .

كل ذلك فيه الدروس والعبر ، وفيه العزاء لكل إنسان يموت له قريب أو حبيب أو أخ أو أب أو ما إلىٰ هنالك .

لأن القضية توحي أن المساواة الحقيقية هي في الموت ، فالكل قد كُتب عليه الموت حتىٰ ملك الموت!!

ولا بقاء إلا للحيِّ القيُّوم الذي لا يموت سبحانه وتعالىٰ ، نسأل الله أن يختم أعمالنا علىٰ كلمة التوحيد ، وأن يثبِّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

* * *

الصلاة... الصلاة!!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ وكان تبع النَّبي ﷺ عشر سنين ، وخدمه وصحبه ـ قال :

إن أبا بكر الصدِّيق كان يُصلي لهم في وجع النَّبي ﷺ الذي توفي فيه ، حتىٰ إذا كان يوم الإثنين ـ وهم صفوف في الصلاة ـ كشف النبيُّ ستر الحجرة ، ينظر إليهم وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسَّم يضحك .

قال : فهممنا أن نفتتن ونحن في الصلاة من الفرح برؤية رسول الله ﷺ ، ونكص أبو بكر علىٰ عقبيه ليصل الصف ، وظنَّ أن النَّبي ﷺ خارجٌ إلىٰ الصلاة .

قال : فأشار إلينا رسول الله ﷺ بيده أن أتمُّوا صلاتكم ، ثم دخل النَّبي ﷺ وأرخىٰ الستر ، فتوفي من يومه ذلك[1] .

* * *

حقاً ، إنه أمر يدخل الفرح والسرور علىٰ القلب .

فالنَّبي ﷺ جاهد في سبيل نشر الدعوة إلىٰ الله مدة ثلاثة وعشرين عاماً ، قضىٰ ثلاثة عشر منها في مكة ، حيث لاقىٰ في سبيل ذلك أشدَّ

---

(١) صحيح البخاري : ١٠/ ٦٥ ، صحيح مسلم : رقمه (٩٨) .

أنواع الابتلاءات ، ثم انتقل إلىٰ المدينة المنورة ليعيش فيها مدة عشر سنوات أمضاها في تأسيس المجتمع الجديد وبناء الدولة الإسلامية الحديثة ، ومقارعة الكفار واليهود والمشركين ، وبعد ذلك كله حضرته الوفاة ، فكان أجمل وأروع مشهد يختم به حياته الشريفة أن ينظر إلىٰ أكثر من مئة ألفٍ من أصحابه وقد اصطفّوا صفوفاً موحَّدة ، خلف إمام واحد .

فكان ذلك بمثابة آخر تقرير يحمله إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ .

* * *

ودرعه مرهونة عند يهودي!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة بثلاثين صاعاً من شعير »[1] .

وعنها أيضاً ، قالت :

تسألوني عن ميراث رسول الله ﷺ ما ترك رسول الله ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا وليدةً !![2] .

وعن أبي بردة قال : دخلت علىٰ عائشة رضي الله عنها ، فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً ، مما يصنع باليمن وكساءً من تلك التي تدعىٰ الملبدة ، فأقسمت بالله لقد قُبض رسول الله ﷺ في هذين الثوبين !![3] .

* * *

أيُّ زهدٍ في العالم يساوي هذا الزهد ؟!

النَّبي ﷺ وهو من هو ؟! من أنه صاحب المقام المحمود ، ومن أنه خاتم الأنبياء ، ومن أنه خُيِّرَ بين أن يكون ملكاً نبياً ، أو نبياً عبداً ، ومن أنه قد عُرضت عليه الكنوز . . . ، لكن مع ذلك يعيش حياة التقشُّف والزُّهد والتواضع .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٦/ ٩٩ .

(٢) صحيح مسلم : رقمه (٢٧) ، مسند أحمد : ٦/ ١٠٨ .

(٣) صحيح مسلم : رقمه (٣٧) ، فتح الباري : ٦/ ٢١٢ .

وليس ذلك إلا لأنه كان يعيش مع الله ، ولا مقارنة بين ما في الدنيا كلها وبين رضوان الله وجنانه .

وليت الأمة جعلت من حياة النَّبي ﷺ القدوة والأسوة ، عسىٰ أن يشكر الغني علىٰ ما أعطاه الله من النِّعم ، ويصبر الفقير علىٰ ما ابتلاه الله من القلَّة وما إلىٰ هنالك .

* * *

لو كنتُ متَّخذاً خليلاً!!

عن أبي المُعلَّىٰ أن النَّبي ﷺ خطب يوماً فقال :

« إن رجلاً خيَّره ربُّه عز وجل ، بين أن يعيش ما شاء أن يعيش فيها ، ويأكُلَ في الدنيا ما شاء أن يأكل منها ، وبين لقاء ربِّه ، فاختار لقاء ربِّه » .

قال : فبكىٰ أبو بكر ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : ألا تعجبون من هذا الشيخ أن ذكر رسول الله ﷺ رجلاً صالحاً خيَّره ربُّه عز وجل بين لقاء ربِّه وبين الدنيا ، فاختار لقاء ربِّه ، وكان أبو بكر أعلمهم بما قال رسول الله ﷺ .

فقال أبو بكر : بل نفديك يارسول الله بأموالنا وأبنائنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما من الناس أحدٌ أمنَّ علينا في صحبته وذات يده من ابن أبي قحافة ، ولو كنت متَّخذاً خليلاً لاتَّخذتُ ابن أبي قحافة ، ولكن ودٌّ وإخاء وإيمان ، وإن صاحبكم خليلُ الله عز وجل »[1] .

* * *

إنها أوسمة رفيعة قلَّدها رسول الله ﷺ للصاحب أبي بكر رضي الله عنه ، فهو الصاحب في رحلة الهجرة ، وهو الذي قدَّم كل أمواله بين يدي رسول الله ، وهو الذي قال عنه رسول الله : « لو كنتُ متَّخذاً خليلاً لاتَّخذتُ ابن أبي قحافة » ، وهو الذي زوَّج رسول الله ابنته عائشة فكانت

---

(١) مسند أحمد : ٣/ ٤٧٨ ، سنن الترمذي : ٥/ ٦٠٧ ، دلائل البيهقي : ٧/ ١٧٥ .

أحبَّ الزوجات إليه ـ بعد خديجة ـ رضي الله عنهن جميعاً .

أجل! إنها لحظات الفراق والوداع ، وما أصعب الفراق ، فكيف إذا كانت المسألة تخص حبيب القلب محمد ﷺ ؟!

لكن إشارة رسول الله لم يفهمها إلا الصدِّيق ، ولولا أن الله كتب ذلك علىٰ الخلق لافتدىٰ الرعيل الأول رسول الله ووضعوه علىٰ رؤوسهم ، لكنه قرار الله الذي أنزله علىٰ قلب النبي :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

* * *

مع علامات محبة رسول الله!!

إن الله تعالىٰ أمرنا أن نحبَّ رسول الله ﷺ ، لكن ذلك له علامات ، أهمها :

١ـ الاقتداء به ﷺ : وذلك عن طريق الالتزام بسنته ، والاهتداء بهديه ، والسير علىٰ منهجه ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ودليل ذلك ما رواه الترمذي بالسند المتصل إلىٰ أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ومن أحيا سُنَّتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة » .

٢ـ الرضا بما شرعه ﷺ : مصداق ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وذلك لأن أحكامه وشرعه ليسا إلا كما وصفهما الله تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] ، وبالتالي فكل ما صدر عنه صلوات الله عليه ليس إلا وحياً من الله تعالىٰ .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ـ٤] ، ورحم الله العارف بالله سهل بن عبد الله عندما قال : من لم ير ولاية الرسول عليه في

جميع الأحوال ، ويرىٰ نفسه في ملكه ، لم يذق حلاوة سنَّته ، لأنه ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من نفسه » .

٣ـ نصر دينه ﷺ : وذلك بالأقوال والأفعال ، وفي كل الأحوال .

٤ـ كثرة ذكره صلوات الله عليه ، وكثرة الصلاة والسلام عليه[1] .

* * *

(١) مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

إلىٰ الرفيق الأعلىٰ!!

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

دخل عبد الرحمن بن أبي بكر علىٰ النَّبي ﷺ وأنا مسندته إلىٰ صدري ، ومع عبد الرحمن سواكٌ رطبٌ يستنُّ به ، فأبدَّه رسول الله بصره[1] ، فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيَّبته ثم دفعته إلىٰ النَّبي ﷺ فاستنَّ به ، فما رأيت رسول الله استنَّ استناناً قطُّ أحسن منه ، وكان بين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات »[2] .

* * *

إنها لحظات الوداع ، ومع ذلك يتوجَّه الرسول ﷺ إلىٰ ربِّه سبحانه وتعالىٰ يطلب منه أن يعينه علىٰ سكرات الموت ، وهو أفضل خلق الله علىٰ وجه الإطلاق!!

بينما كانت زوجه عائشة رضي الله عنها تمسحُ صدره الشريف وتقول في دعائها : اكشف البأس ، رب الناس ، أنت الطبيب وأنت الشافي!! فيقول النَّبي ﷺ : « ألحقني بالرفيق ، ألحقني بالرفيق الأعلىٰ! » .

وهكذا صعدت أطهر روح إلىٰ خالقها ، ودُفن الجسد في التراب!!

---

(١) أي : أعطاه الرسول حظَّه من النظر .

(٢) صحيح البخاري : ٦/ ١٦ ، الترمذي : رقمه (٩٧٨) ، دلائل البيهقي : ٧/ ٢٠٦ .

فجاءت فاطمة الزهراء ، فأخذت قبضة من تراب القبر فوضعته علىٰ عينيها وبكت ، وقالت :

ماذا علىٰ من شمَّ تُربة أحمد ... ألا يشُمَّ مدىٰ الزمان غواليا

صُبَّت عليَّ مصائبٌ لو أنها ... صُبَّت علىٰ الأيام عُدن لياليا

فصلاة وسلام عليك يا سيدي يارسول الله ، سائلين الله أن يجعلنا من محبِّيك في الدنيا والآخرة ، لتكون لنا شفيعاً عند الله ، ومصداق حالنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] .

* * *

الخاتمة

لكن هل يعني ذلك أننا وصلنا إلىٰ الوداع ؟!

أبداً ، فلسنا من الذين يملكون وداع رسول الله ﷺ ، ورحم الله القائل :

لو كنتَ ساعة بيننا ما بيننا وشهدتَ كيف نكرر التوديعا
لعلمتَ أن من الدموع محدّثاً وعلمتَ أن من الحديث دموعا

أبداً ، لكن الذي حدث معنا ، أننا ظننا أن اقترابنا لذكر رسول الله ﷺ عن طريق الوقوف عند بعض اللقطات من سيرته ، أن ذلك سيطفي نار الشوق إليه ، لكن الذي حدث عكس ذلك تماماً ، فأصبح حالنا كحال ذلكم المحب الذي قال :

أحِنُّ إلىٰ زيارة حيِّ ليلىٰ وعهدي من زيارتها قريبُ
وكنتُ أظنُّ قُربَ الدار يُطفي لهيب الشوق فازداد اللهيبُ

إذاً :

كل محبٍّ للرسول ﷺ معذور في ذلك ، لأن هناك دوافع كثيرة إلىٰ محبَّته صلوات الله عليه ، من ذلك :

أنه أولىٰ بأمته من أنفسها ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، وقوله : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] .

وأنه ﷺ كان حريصاً علىٰ أمته حرصاً لا مثيل له ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

لذلك لا بدَّ في محبته ﷺ من تقديمها علىٰ كل محبة ، حتىٰ الوالد والولد ، حتىٰ النفس ، والسبب أن الله تعالىٰ أمر بمحبته ، وأنه ﷺ قدَّم للأمة ـ بل للأمم من بعده ـ كل ما يؤدي إلىٰ النور والصراط المستقيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] .

ولا يمكن للأمة أن تخرج من مشاكلها وأزماتها إلا إذا اتَّخذت سيرته الطاهرة أسوة وقدوة ، ومن ثَمَّ سارت علىٰ نهجه في الأقوال والأفعال والأخلاق ، فحياته ﷺ صفحة بيضاء ناصعة ، وكل إنسان يستطيع أن يجد فيها ما يناسب وضعه ، فإن كان عزباً وجد في سيرة رسول الله حياة العزب العفيف ، وإن كان متزوجاً بزوجة واحدة ، وجد في سيرته الطاهرة مع خديجة الكبرىٰ خير أسوة ، وإن كان عنده أكثر من زوجة وجد في السيرة الشريفة أسوة في ذلك .

وهكذا : في سلمه وحربه ، في غضبه وفرحه ، في عصره المكي وقت الضعف ، وعلىٰ رأس هرم السلطة في المدينة المنورة ، في المسجد وبين أصحابه ، في البيت مع الزوجات والأولاد والأحفاد ، وصدق الله تعالىٰ بقوله : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وهل يكون التأسي والاقتداء إلا بالحبِّ ؟ ولن يكن الحبُّ إلا إذا وقفنا أمام سيرته الطاهرة ، وهذا هو عملنا في هذا الكتاب المتواضع ، وهي ليست إلا محاولات وإطلالات سريعة علىٰ نماذج رائعة من السيرة

الطاهرة ، وهي ليست إلا لقطات مضيئة التقطتها عدسة من يدَّعون الحبَّ للرسول الأعظم ﷺ ، فإن وُفِّقنا لذلك فهذا من فضل الله وتوفيقه ومنَّته علينا ، وحسبنا أننا حاولنا واجتهدنا ، وإلا فذلك من أنفسنا ونسأل الله العفو والغفران ، لكن شفيعنا في ذلك ما ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك قال :

جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله متىٰ الساعة ؟

قال : « وما أعددت لها ؟ »

قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكني أحبُّ الله ورسوله .

فقال : « أنت مع من أحببت يوم القيامة »[1] .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٩ـ٧٠] .

اللهم تقبَّل منّا واغفر لنا وارحمنا ، واجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهك الكريم ، وارزقنا اللهم حبَّك وحبَّ حبيبكَ المصطفىٰ ﷺ ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

* * *

(١) حديث متفق عليه واللفظ لمسلم : رقمه (١٦٤) .

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم وبعض تفسيراته .

ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق عبد العزيز بن باز ، ط١ ٩٧ دار الفكر ، بيروت .

ـ شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي ، ط٣ (د .ت) ، دار القلم ، دمشق .

ـ الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، للإمام الترمذي ، تحقيق الدكتور مصطفى الذهبي . ط١ ٩٩ ، دار الحديث ، القاهرة .

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ط١ ٩٨ ، عالم الكتب ، بيروت .

ـ شرح السنّة ، للإمام البغوي ، ط٢ ٨٣ المكتب الإسلامي ، بيروت .

ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، بتحقيق محمد علي البجاوي ، ط١ ٩٣ ، دار الجيل ، بيروت .

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الحافظ الهيثمي ، ط١ ٩٤ ، دار الفكر ، بيروت .

ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ابن الأثير ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط٢ ٨٣ ، دار الفكر ، بيروت .

ـ سبل السلام شرح بلوغ المرام ، للإمام الصنعاني ، ط١١ ٩٨ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

- المغني ، للعلامة ابن قدامة ، تحقيق الدكتور محمد خطاب والدكتور محمد السيد ، ط١ ٩٦ دار الحديث ، القاهرة .

- سيرة سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ ٩٨ ، دار الحافظ ، دمشق .

- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ، الحافظ السخاوي ، تحقيق بشير عيون ، مكتبة المؤيد السعودية .

- دلائل النبوة ، للإمام البيهقي ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط١ ٨٥ دار الكتب العلمية ، بيروت .

- الوفا بأحوال المصطفى ، للإمام ابن الجوزي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط١ ٦٦ دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (إنسان العيون) ، علي الحلبي ، (د . ت) دار المعرفة .

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ، مكتبة الفارابي بدمشق (د . ت) .

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ابن سيد الناس ، ط١ ٨٦ مؤسسة عز الدين ، بيروت .

- صفة الصفوة ، الإمام ابن الجوزي ، ط١ ٩٢ ، دار الجيل ، بيروت .

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، العلامة ابن قيم الجوزية . تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، ط٤ ٩٧ دار الكتاب العربي ، بيروت .

- فضائل الصحابة في ميزان الشريعة الإسلامية ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ دار المكتبي ، دمشق .

ـ المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية ، العلامة أحمد القسطلاني ، تحقيق صالح الشامي ، ط١ ٩١ المكتب الإسلامي ، بيروت .
ـ السيرة النبوية ، ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ط دار القلم بيروت (د . ت) .
ـ لسان العرب ، ابن منظور ، تصحيح أمين عبد الوهاب والصادق العبيدي ، ط١ ٩٥ دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
ـ القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، ط١ ٩٧ دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
ـ البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت (د . ت) .
ـ واحة الصالحات ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط٣ ٩٨ دار المكتبي ، دمشق .
ـ حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، ط٦ ٩٣ دار القلم ، دمشق .

* * *